

مجلة علمية، ثقافية، جامعة، فصلية

ثقافة الهند

المجلد ٥٢ العدد ٢

٢٠٠١م

رئيس التحرير

س. ضياء الحسن الندوي



المجلس الهندي للعلاقات الثقافية

آزاد بوان، نيو دلهي

الهند

محتويات العدد

١٤٨ - ١٣٦ تراث الهند في القرون الهند و البحث عن التقاليد العلمية
أ.د. سيد نقي حسين الجعفري

تراث الهند في القرون الوسطى و البحث عن التقاليد العلمية

بقلم: ا. د. سيد نقي حسين الجعفري تعريب: د / حبيب الله خان

حين كتب السير سيد احمد خان مقاله الشهير في تأييد النظرية القائلة "بأن الارض ثابتة و الشمس تدور حولها" بعنوان "قول متين در إبطال حركت زمين" فإنه حتما لم يكن يعرف بأن هذه النظرية التي تقول "إن الارض ثابتة وسط الكون و ان الشمس و القمر و الكواكب تدور حولها" لقد ثبت بطلانها تماماً، ولعله لم يكن يعرف ايضاً ان العالم الفلكي البولندي كوبرنيكوس قبل حوالي ثلاثمائة سنة في عام 1543م قدم نظرية جديدة من خلال بحثه العلمي بعنوان "The Revolutions of the Celestial Spheres" (أي دوران الاجرام السماوية) مقابل نظرية بطليموس (Ptolemy) القائلة "بدوران الشمس" و برهن كوبرنيكوس على دوران الكرة الأرضية ذاتها و حول الشمس، و قد أحدثت هذه النظرية ضجة و ثورة كبيرتين في الاوساط العلمية في أوروبا، و اقامت الدنيا و أقعدها، ثم كسبت هذه النظرية مزيداً من القوة و التأييد من اختراع المنظار و الابحاث القيمة التي قام بها غاليليو (العالم الفلكي الإيطالي)، و في القرن السابع عشر أصبحت هذه النظرية من المسلمات بها، و هنا يبرز السؤال ان السير سيد احمد خان الذي يعتبر أكثر علماء عصره معرفة و علماً، كيف بقي لا يعرف هذه النظرية؟ في حين أنه كان يعرف إضافة

تراث الهند في القرون الوسطى و البحث عن التقاليد العلمية

إلى اللغة الأربية العربية و الفارسية أيضا، في ضوء هذا يمكننا ان نستنتج ان نظرية كوبرنيكوس لم تنقل إلى أية لغة من اللغات المستخدمة في البلاد الإسلامية حتى ذلك الحين، قد يعود سبب ذلك إلى عدم معرفة المسلمين باللغات الأربية الحديثة، بينما كان العلماء العرب يعرفون جيدا اللغة اللاتينية و السريانية في العهدين الأموي و العباسي، و لكن في عصر كوبرنيكوس، حلت اللغات العلمية الحديثة محل اللغة اللاتينية في أوربا، و هذا هو السبب الذي حال دون معرفة المسلمين بالاختراعات و الأفكار العلمية التي كانت تحدث في أوربا، و لم يمنع السير سيد أحمد خان من كتابة هذا المقال، إن هذا الواقع إن دل على شيء فإنه يدل على أن انقطاع التقاليد العلمية و ضعفها أدى العالم الشرقي كله بشكل عام و المسلمين بشكل خاص إلى تخلف و انحطاط، و فيما يتعلق بالهند فلا نجد أية تقاليد علمية حتى أثناء قيام السلطنات و الإمبراطوريات الكبرى للمغول وغيرهم من الملوك الكبار، عندما نتحدث عن التقاليد العلمية القومية ترتسم في أذهاننا صورة واضحة و مزدانة بالمآثر العملية لبغداد و قرطبة في عصر المأمون و المتوكل و عبد الرحمن الناصر على وجه الترتيب، إن الصورة الذهنية لبغداد لا تقتصر على عصر المأمون و المتوكل فحسب، بل تشمل دور العلماء العرب كلهم في العهدين الأموي و العباسي، و ما بذلوا من جهود مضيئة في تفعيل الحركة العلمية و تطويرها و ترويجها و قيادتها، كما تشمل صورة قرطبة تاريخ التقاليد العلمية الحافل بالمنجزات الثقافية و الحضارية التي قمتها العلماء العرب على مدى سبعة قرون من الزمن إبان حكمهم على الأندلس، و التي ظلت منارة الهدى للعالم المتحضر بأسره لقرون طويلة، و تُعدّ الخلافة العباسية في عصر المأمون التي

كانت ممتدة من إفريقيا الشمالية إلى السند في شبه القارة الهندية نمونجاً رانعاً للتقاليد العلمية بسبب تقنمها في كل مجالات الحياة، و كانت تمتاز هذه الخلافة العظيمة بوجود مركز علمي في كل مدنها كبيرة كانت أو صغيرة، ويتبين مدى انتشار العلم في ذلك الزمان من قصة نكرها العلامة شبلي النعماني في كتابه "المأمون" لما بلغت شهرة المأمون في إكرام العلم و العلماء إلى العلامة نضر بن شميل عزم على السفر من البصرة إلى خراسان، فخرج لتوبيعه حشد من الناس يُقدر عددهم ثلاثة آلاف رجل و كل رجل في هذا الحشد إما كان محدثاً أو نحويًا أو لغويًا أي ماهراً في فن من فنون المعرفة"، و في عصر المأمون إذا كان كبار رجال الفكر و الدعوة أمثال الإمام البخاري و الإمام الشافعي و الإمام أحمد بن حنبل و الإمام الواقدي و حافظ بن هشام في جانب، فكان في جانب آخر أساطين العلوم و المعرفة أمثال المسعودي و حنين بن إسحاق و يعقوب الكندي و محمد بن موسى الخوارزمي و أبو العباس الفرغاني وغيرهم من العلماء الكبار الذين زينوا بيت الحكمة بوجودهم، و كان بيت الحكمة يضم العلماء و الحكماء من كافة أنحاء العالم من دون أدنى تمييز على أساس الدين و اللغة، فكان فيه هندوسي و مجوسي و يهودي و نصراني كما كان فيه هندي و بيزنطي و إغريقي وغيرهم من ذلك، و في مثل هذه البيئة الملائمة استطاع العلماء العرب ان ينقلوا كافة علوم العالم إلى اللغة العربية ثم اضافوا إليها كثيراً من اجتهاداتهم على أساس تلك التراجم.

إن تاريخ العرب المجيد في الاندلس الذي يمتد على سبعة قرون، و كيف دالت دولتهم فيها، و النتائج المحزنة التي تلقوها، و كيف تم إخراجهم منها، كلها ماثل في الأذهان، و إن الحضارة العالمية ستظل تفتخر على المآثر

تراث الهند في القرون الوسطى و البحث عن التقاليد العلمية

العلمية الخالدة التي تركتها الحضارة العربية في الاندلس و التي عملت كمقومات أساسية للنهضة الأوربية فيما بعد، و نجد تماثلاً كبيراً بين عصري المأمون و عبد الرحمن الناصر، لأننا نرى في عصر عبد الرحمن الناصر بشكل خاص، و على طول التاريخ العربي الاندلسي بشكل عام، أن العلوم الدينية و الدنيوية ترعرعت معاً، فإذا شهدت العلوم الدينية منها الفقه و التفسير و الحديث و السير ازدهارا كبيراً في جانب، ففي جانب آخر شهدت العلوم الدنيوية منها الفلسفة و علم الطبيعة و علم الطب و علم الجغرافية و علم الرياضيات و علم الهيئة و الفلك و علم التاريخ تقدماً هائلاً، و اضاف الاندلسيون إضافات ممتازة من نتاجهم في مجال الشعر و الأدب مثل الزجل و الموشح، كما أنجبت الاندلس اعلام كبار في شتى ميادين المعرفة، نجد في علم الجغرافية ابو حامد الفرناطي و الشريف الإدريسي و ابن جبير، و في علم الفلك البطروجي و بنوهود و الموتمن، و في علم التاريخ ابن بشكوال و ابن الضبي و العالم الشهير ابن خلدون، و في علم النباتات ابن الواقد و ابن البيطار و ابن صابن، و في علم الفلسفة ابن رشد و ابن باجة و ابن طفيل و ابن ميمون و الشيخ الكبير محي الدين ابن العربي، و في علم الجراحة ابو القاسم الزهراوي و بنوزهر، و في علم الطب ابن رشد و ابن ميمون و ابن الهيثم و ابن باجة و في العصر الاخير ابن الخطيب، لقد كانت هذه الاسماء متداولة في المعاهد و الجامعات العلمية في أوروبا من القرن الرابع عشر حتى القرن السابع عشر.

و يمكن ان نتصور المكانة العلمية المرموقة التي بلغتها مدينة قرطبة في القرن العاشر الميلادي بفضل اهتمام الحكم الثاني خلف عبد الرحمن الناصر الذي شجّع العلوم و الآداب، و الذي حول هذه المدينة إلى سوق علمية كبيرة كانت تتوفر فيها كتب علمية و أدبية من كل الاقطار، و نكر السيد طفيل

الهاشمي في مقاله بعنوان "الأنشطة العلمية في الأندلس" المنشور في مجلة فكر و نظر، العدد الخاص بالتراث الإسلامي في الأندلس، "أن مدينة قرطبة كانت تضم عشرين ألف محل لبيع الكتب، ومعظم تجار الكتب كانوا يطلبون من النساخ إعداد الكتب حسب اهتمامهم الخاص، وكانت قد أنشئت المكتبات العامة على نفقات الدولة في جميع المدن المهمة تقريبا، كما كانت ٧٠ مكتبة عامة في مدينة قرطبة فقط، وكانت هناك عدة مكتبات شخصية للرجال والنساء، وأكبرها مكتبة ابن فطيس التي كان يقوم فيها النساخ المهرة بنسخ الكتب دائما، واشتهرت بين مكتبات شخصية عائدة للنساء مكتبة عائشة بنت أحمد بن محمد قادم، ومكتبة خديجة بن جعفر التميمي". وواصلت الأندلس عطاءها العلمي والأدبي حتى في عصر ملوك الطوائف الملني بالقلقل السياسية، وبهذا الصدد ذكر الدكتور أمين الله وثير في مقاله المنشور في مجلة فكر و نظر العدد الخاص، "وفي هذا العصر خرج الشعر والأدب من محافل الشعراء والأنبياء ومن بلاط الملوك والأمراء ووصلا إلى محلات الصنّاعيين والمحترفين العاميين وإلى مزارع الفلاحين وإلى أكواخ الكادحين، وأصبح كل شخص من الطبقات المتوسطة تقريبا، قادرا على تقويم إنتاج أدبي جميل".

ومن المنجزات الحقيقية التي حققها الأندلسيون - ما عدا الفن المعماري والصناعة والحرفة والزراعة والبستنة وتشجيع الشعر والأدب وترويج العلوم والحكمة - هو إقامة مجتمع منقطع النظير ظل منارة الهدى لقرون طويلة للبلدان الأوروبية التي كانت غارقة في الجهل والتعصب، وكان كل فرد في ذلك المجتمع - حاكما كان أو محكوما، رئيسا كان أو مرؤوسا، عالما كان أو نساخا، عربيا كان أو بربريا، مسلما كان أو غير مسلم - يتلهم لنيل الكمال ويسعى وراء تحصيل العلم والمعرفة وينشغل بالبحث العلمي والتحقيق

تراث الهند في القرون الوسطى و البحث عن التقاليد العلمية

الأكاديمي، و كان قوام ذلك المجتمع التعاطف البشري و الأخوة الإنسانية التي لا يسعنا تصورهما في الوقت الحاضر إلا في الحلم.

و أرى مناسبا أن أستشهد بقول دبلو. بي. إيتس (W.B. Yeats) حول بيزنطة (القسطنطينية القييمة) "اعتقد انه في بيزنطة القييمة كانت الحياة الدينية و الجمالية و العلمية وحدة واحدة بشكل لا يوجد له مثيل فيما سبق أو على الأقل في عصور التاريخ المسجل، فكان المعمار و الصانع و الشاعر ينقل نفس الرسالة لعامة الناس و أختيارهم، و كان الرسام و عامل الفسيفساء و الصائغ و المجلد غير واعين تقريبا بشخصيتهم الانفرادية أو تصميمهم الانفرادي فيما يتعلق بموضوعاتهم و كانوا يقدمون روبا لشعب بالجملة، و كان بإمكانهم أن ينقلوا من الكتاب المقدس تلك الصور التي تبلغ من القداسة درجة النصوص ذاتها و يعرضوها في تصميم أوسع يبدو عمل شخص واحد رغم كونه نتيجة جهود الكثيرين، فسواء كان ذلك في البناء أو في التصوير أو في المعمولات المعدنية كان يمثل صورة واحدة".

و يُعدّ أبو علي ابن سينا و أبو الريحان البيروني و عمر الخيام من نوابغ الدهر في علوم الطب و الفلسفة و الفلك و الرياضيات، و اكتسب البيروني الذي عمل في بلاط السلطان محمود شهرة عالمية بفضل كتابه الشهير "تاريخ الهند" كان من مدينة غزنة، و كان أبو علي ابن سينا إيراني الأصل من بخارى، و كان عمر الخيام إيرانيا و اكتسب شهرة كبيرة من رباعياته، و كان ابن النفيس الذي اكتشف الدورة الدموية قبل مئات السنين من الطبيب الإنجليزي وليم هارفي (William Harvey) من مصر.

لقد تبين مما جاء اعلاه أن المسلمين حتى القرن الثالث عشر و الرابع عشر الميلادي كانوا يعتبرون العلم و الحكمة ضالة المؤمن، فكانوا يحرصون

على جمعها و اكتشافها و الاستفادة من خبرات و اكتشافات من سبقوهم في العلم، لذلك نجد ان علم العالم بأسره كان موجودا في الكتب العربية، و اللغة العربية كانت اكبر وسيلة لعلوم الدين و الدنيا كليهما.

و لكن لما نقرا تاريخ الهند للقرون الوسطى نجد اشياء مختلفة تماما، لان اوضاعها كانت تختلف عن اوضاع تلك البلدان التي كان يحكمها العرب، كما كانت تختلف المتطلبات الجغرافية و السياسية، و فوق كل ذلك ان الذين لعبوا الدور الرئيسي في صنع تاريخ الهند هم الاتراك و المغول، و هذه الشعوب لم تكن متحمسة مثلما كانت العرب في تعلم العلوم و ترويجها، و فضلا عن ذلك لقد تأثر العالم كله بحادث سقوط بغداد الذي تقشعر له الابدان هلعاً، و قد أثر هذا الجمود الفكري في الاتراك و الإيرانيين و حتى في السلطنات التي قامت في الهند، و يكتب البروفسور مجيب في كتابه "حكاية العالم" حول السلطنة العثمانية، "لعل كان هذا النقص في سير الاتراك، او ان نهج الحكومة الذي اختاروه حال دون تحقيقهم إنجازات تُذكر في مجال العلم و الأدب، و ما من شك في ان الشعراء و الأدباء وُلدوا فيما بينهم ايضاً، و لكنهم لم يستطيعوا ان يتجاوزوا حدود المحاكاة للأساتذة العرب و الإيرانيين، و تخلفوا في مجال العلوم اكثر من ذلك، مع انهم لم يكونوا اقل درجة من أي شعب آخر في فن العمارة، و يرجع سببه إلى ان المسلمين أغلقوا دفاتر علومهم تاركين هم البحث العلمي و التحقيق الاكاديمي" لقد أغلق باب الاجتهاد امام العلوم النقلية و لكن المسلمين أغلقوا باب الاجتهاد امام العلوم العقلية ايضاً.

لقد شهدت الهند قيام السلطنات الكبرى في عهد السلاطين و بعد ذلك في عهد المغول على غرار الإمبراطورية العثمانية في تركيا، و السلطنة الصفوية في إيران، ان هذه السلطنات الثلاث تُعد من اكبر و اقوى الإمبراطوريات التي

تراث الهند في القرون الوسطى و البحث عن التقاليد العلمية

قامت في القرون الوسطى، ولكنها رغم كبر حجمها و مساحتها، و وفرة وسائلها و كثرة عدد سكانها، و استقرارها السياسي و تفوقها العسكري، و امتلاكها الصناعة و التجارة، لم تتمكن من تحقيق النتائج الرائعة في مجال العلم و الثقافة و التي حققها من سبقها في الوجود، و مع ان هذا الموضوع يخص علماء التاريخ و لكن ليس من الصعب للرجل العادي ان يصل إلى هذه النتيجة، و لعل من بين الأسباب الأخرى التي أدت إلى هذه الحالة هو ان وجهة نظر حكام هذه السلطنات تجاه الحياة و العالم كانت مختلفة، و قد لا يكون صعبا ان نفهم وجهة نظرهم نحو الحياة و العالم إذا القينا نظرة على هواياتهم و أولوياتهم.

لقد أولى الملوك الأتراك في الهند اهتماماً كبيراً بوسائل العزة و المكانة و الصيت و الشهرة و الجلالة و العظمة، في حين كان ينقصهم الحماس لتعميم العلم و ترويجه، نطلع عبر كتاب سيد صباح الدين عبد الرحمن بعنوان "مظاهر حضارية في القرون الوسطى" على تفاصيل غير متناهية للبلاط و عظمة البلاط و المحلات و الملابس و المجوهرات و أدوات التجميل و العطور و المأكولات و المشروبات و السلع و مستلزمات المجلس و أواني الطبخ و وسائل النقل و المراكب و الاحتفالات و الأعياد، بالإضافة إلى اهتمام الملوك في الهند بالمعدات العسكرية و فن العمارة و الصناعة و الحرفة و التجارة و رفاهية الشعب، لا يسمح هذا المجال أن نعتد المنجزات التي تحققت في عهد السلاطين و المغول، بل نرى ما هي النتائج التي ترتبت نتيجة عدم اهتمامهم بالأمور المتعلقة بالعلوم و الثقافة، لا تقتصر هذه الحالة على الهند فحسب، و إنما تتجاوزها لتعم الخليفة العثمانية و الحكومة الصفوية و حكومة المملوكين في مصر، و يدلنا على هذه الحالة قول ابن خلدون الذي مفاده "لقد سمعنا ان في بلاد الإفرنج و في مناطق السواحل الشمالية من بحر الروم رواج كبير للفلسفة الطبيعية، و يتم تعليمها في الصفوف المختلفة بشكل متكرر،

و يتم شرح تلك العلوم بشكل وافٍ، و يكثر عدد الذين يعرفونها كما يكثر عدد الطلاب أيضاً، وآله اعلم، و لكن حسب رأيي ان هذه العلوم لا تزيد شيئاً من علومنا العينية، لذا من الافضل ان نبتعد عنها".

و قد لا يكون من الخطأ إذ نقول إن العزلة الثقافية و عدم الربط مع العلم يستمران منذ أيام ابن خلدون حتى يومنا هذا، إن إغلاق الباب في وجه الاجتهاد أعطى الفقه مكانة متفوقة لا يُعلى عليها من ناحية، و من ناحية أخرى أسفر اهتمام الحكّام بالمنزلة و المكانة و سعيهم وراء اللذات عن ازدهار و تطور التصوف الذي جذب كل العناية و الاهتمام لتصفية الباطن، و يبدو أن هذه العوامل كلها، أحياناً بشكل فردي، و أحياناً أخرى بشكل جماعي مشترك تسبب في إضعاف أو قطع أواصر المجتمع الإسلامي مع تقاليد علمية قومية لبغداد و قرطبة و غرناطة و بخارى و غزنة.

و لم يدرك المسلمون بانقطاع صلتهم مع التقاليد العلمية العالمية إلا بعد مضي زمن طويل، و حصلت هذه الثورة بشكل تدريجي و خافٍ، و لما كانت الخلافة العثمانية و الحكومة الصفوية و الإمبراطورية المغولية على أوج مجدها أي عندما كان سليمان اعظم القانوني في سدة الحكم في تركيا، و الملك شاه عباس في إيران، و الإمبراطور أكبر في الهند، من دون شك، كانت هذه الحكومات تُعد آنذاك من أكبر القوى و اعظمها، و حتى في ذلك الزمن نجد ان المسلمين كانوا قد انقطعوا عن التقاليد العلمية، و كانت مراكز العلم و الثقافة قد انتقلت إلى أوروبا حيث كانت البحوث العلمية تجرى على أساس التراجم العربية في معاهد سالرنو (Solemo)، و فينيسيا (Venice)، و طليطلة (Toledo)، و سبق البرتغاليون الشعوب الأوربية الأخرى في إقامة حكوماتهم على البحر بسبب تحقيقهم المهارات في إنشاء السفن و الملاحة البحرية.

تراث الهند في القرون الوسطى و البحث عن التقاليد العلمية

و لم يدرك الأتراك و الهنود و المصريون، بالتفوق الأوربي إلا في نهاية القرن الثامن عشر الميلادي، أي بعد مضي ثلاثة أو أربعة قرون من السباق العلمي، وحتى في ذلك الزمن الحرج لم تكن تفكر هذه الحكومات إلا في إحراز التفوق العسكري و الهيمنة السياسية، و لم تكن تدرك أهمية تلك العلوم التي بفضلها كانت تظهر القوى الأوربية كمنافسيها، و بهذا الصدد أريد أن أنقل الحكاية التي ذكرها البروفسور عبد السلام، في كتابه "الحلم و الحقيقة"، لقد بدأ سليم الثالث في عام ١٧٩٩م تعليم العلوم الجديدة منها علم الجبر و علم المثلثات و علم قوانين حركة القذائف و علم المعادن وغيرها من العلوم في تركيا، و كان هدفه من هذا التعليم أن لا يتخلف من البلدان الأوربية في صناعة الأسلحة و المعدات العسكرية، و لتحقيق هذا الغرض استقدم الأساتذة من السويد و فرنسا، حتى في ذلك الوقت لم يُبذل الاهتمام بالقر الكافي لمعرفة العلوم الأساسية، و نتيجة لذلك لم تتمكن تركيا من منافسة البلدان الأوربية في صناعة الأسلحة و غيرها، و بعد مضي ٣٠ سنة على ذلك، نظم محمد علي والي مصر برنامج تدريب العمال العاملين في مجال الاكتشاف و التنقيب عن الفحم و الذهب، و لكن فشل هو و من جاء بعده في الحكم في فهم أن مصر تحتاج إلى العلوم الأساسية الخاصة بطبقات الأرض أيضاً".

و ما يدعوني إلى العجب و الاستغراب هو أن الأتراك و المصريين و الهنود رغم اعترافاتهم بالتفوق العلمي للبلدان الأوربية لم يحاولوا تعلم اللغات الأوربية الحديثة مع أن أهميتهم السياسية و قدراتهم العسكرية بدأت تضحل و تتدهور، و بالعكس عندما تمت ترجمة العلوم و الفنون من اللغة السريانية و الإغريقية إلى اللغة العربية في العهدين الأموي و العباسي، و أنشئ بيت الحكمة، لم يكن أحد في العالم المتحضر بأسره أقوى منهم، و لو قام أحد من الأتراك و المصريين و الإيرانيين و الهنود بترجمة العلوم الجغرافية و العلوم

الفلكية و الطبيعية و الرياضية و الكيماوية و علوم طبقات الارض و غيرها من العلوم المتعلقة بإنشاء السفن و الملاحة البحرية الموجودة في لغة من اللغات الأوربية الحديثة لما وهنت و ضعفت التقاليد العلمية عند المسلمين إلى هذا الحد.

لا نجد في تاريخ القرون الوسطى إلا عددا ضئيلا جدا من الملوك الذي اهتموا بأمور العلوم و المعرفة، و من هؤلاء الملك ألخ بك حفيد تيمور لك الذي انشأ مرصدا، و اشتهر بولوعه بالمناظرة مع العلماء حول علم الهيئة، و يمكن أن نشمّل اسم الفلك همايون الذي كان مشغوقاً بمطالعة الكتب فقط، و مهاراجا جاي سينغ الذي أمر بإعداد زيجات محمد شاهي في بداية القرن الثامن عشر، إن هذه الامثلة المتفرقة لم تكن من شأنها أن تشجّع التقاليد العلمية.

لم يبذل المسلمون أي جهد يذكر في سبيل تعلم العلوم و المعارف الموجودة في اللغات الأوربية الحديثة في الوقت الذي بدأ الرعب يذب إلى قلوبهم من ازدياد قوة أوربا، بل إنهم ركزوا جلّ اهتمامهم على تعلم العلوم النقلية و التاريخ و الأدب و الشعر، و لم يكن نظام تعليمهم شاملا و مفيداً، و بهذا الصد ذكر البروفسور ضياء الحسن الفاروقي في كتابه "النظام التعليمي للمسلمين" لو نسبر أغوار النظام التعليمي الراج فيما بين المسلمين خلال القرون الوسطى في الهند، لنصل إلى نتيجة أن ذلك النظام التعليمي بأكمله كان جامداً، سواء كانت العلوم النقلية أو العلوم العقلية، لقد كان النظام التعليمي مبنياً على التقليد، و فيما يخص بالعلوم النقلية فلا مفر من التقليد و لكن العلوم العقلية لا تعتقد إلا على العقل، غير أننا لا نجد أي حداثة أو خروج من التقليد في القرون الوسطى. قبل القرن الثامن عشر و التاسع عشر لا نجد أي مثال حظيت فيه العلوم العقلية بعناية و اهتمام، و لذلك لم تثمر جهود علماء فرنفي محل و خير أباد بسبب عدم وجود تقاليد علمية قوية و متصلة، و لا يفوتني أن أنكر

تراث الهند في القرون الوسطى و البحث عن التقاليد العلمية

الجهود المشكورة التي قام بها فضيلة الشيخ الشاه ولي الله و التي ستظل موضع الفخر و الاعتراز لانه أبدى اهتمامه المتزايد بالعلوم النقلية و العقلية كليهما في زمن يتسم بالإهمال تجاه العلوم و المعارف.

و يُعد إنشاء دائرة المعارف في مدينة حيدر آباد في نهاية القرن التاسع عشر خطوة مهمة تجاه الإمام بثروتنا العلمية، و إعلام العالم المتحضر بها، لقد قام هذا المعهد العظيم الذي أسسه الملك نظام الساس بجمع الكتب و المخطوطات العربية المنتشرة في مكتبات العالم ثم بنشره باهتمام بالغ، و تشكل هذه الكتب المنشورة – من هذا المعهد في الأدب و اللغة و التاريخ و السيرة و الطب و الرياضية و الفلسفة و الفلك – حلقة وصل بين تقاليد الثقافة العربية و بين تقاليد الثقافة الإغريقية و المصرية، و لم يحذ الملك نظام السابع حنو سلفه فحسب، بل شجّع هذه العملية بإصدار أمره لترجمة كتب العلوم الجديدة من اللغة الإنجليزية إلى اللغة الأربية، إن الجامعة العثمانية التي تعتبر أول جامعة أسست في شبه القارة الهندية لتدريس العلوم و الفنون بواسطة اللغة الأربية، و لتوفير الكتب و المقررات أنشئت دار الترجمة في هذه الجامعة، تتجلى أهمية اللغة الإنجليزية لكونها لغة العلوم و الفنون، و لا يمكن اكتساب العلوم و الفنون في الوقت الحاضر إلا عن طريق لغة من اللغات الأوربية الحديثة، سواء اللغة الفرنسية أو الألمانية أو الإسبانية، و لهذا الغرض قام السير سيد أحمد خان بحملة لتعلم اللغة الإنجليزية، و حاول السير سيد أحمد خان جاهدا في القرن الماضي لإيجاد ربط بين المسلمين و تقاليدهم العلمية الزاهرة، لم يؤسس السير سيد أحمد خان جامعة علي غر الإسلامية فحسب، بل أسس بيت الحكمة الجديد في الهند بمساعدة من العلماء الكبار أمثال العلامة شبلي النعماني و حالي و نكاه الله و جراغ الدهلوي، و فتح آفاقاً جديدة أمام المسلمين الهنود في بناء الهند الحديثة، لقد كان شاعر

المشرق العلامة محمد اقبال اكثر الناس شعورا بتخلف المسلمين في ميدان العلم و المعرفة، و كان إحساسه بفقر المسلمين العلمي و خسرانهم بقدر مطالعته للعلوم الجديدة و القديمة، و بقدر تفكره في هذا المجال، و نجد الإشارات إلى ذلك بكثرة في أشعاره، و فيما يتعلق بسلوك غير علمي تجاه مفهوم العلم بأن العلم لا يعني إلا علم الدين فقط، فهو مفهوم خاطيء، و يحتاج إلى أن نعيد النظر فيه و نبحث عن الأسباب التي أنت المسلمين إلى مثل هذا التخلف و الانحطاط، فإن الشعب الذي أغلق على وجهه باب العلوم الجديدة منذ أربعة او خمسة قرون، كيف يمكنه أن يدعى بإحراز تفوق في العلوم و الحكمة، و اما الذي يزيد الطين بلة، فهو ان المصلحين و قواد الشعب لا يعيرون أي اهتمام بانقطاع المسلمين من تقاليدهم العلمية، و لا يعتبرونه سببا رئيسيا لتخلف المسلمين، و إنما يحاولون إيجاد سبب تخلفهم و انحطاطهم في مكان آخر.

بدأت حديثي من المقال الذي كتبه السير سيد أحمد خان بعنوان "قول متين در إبطال حرکت زمين" و أرى لزاما أن أنكر في هذا الصدد، ان السير سيد أحمد خان عندما طلب من شيخ الشعراء الأردوين الأستاذ غالب كتابة تصدير للكتاب "أئين أكبري" فردّ عليه الأستاذ غالب بأنه "لكل عهد قانونه، إن البواخر و الرسائل المرسله عبر البرق تدلان على عهد آخر" لو عاش كل من السير سيد أحمد خان و الأستاذ غالب بغداد المأمون، و قرطبة الناصر، لما كتب السير سيد أحمد خان مقاله عن موضوع أكل الدهر و شرب عليه قبل زمان، و لما بلّغ الأستاذ غالب السير سيد أحمد خان عن قدوم عهد لا عهد له به، و لكنهما كانا من نلهي الملك بهادر شاه ظفر التي كانت خالية من التراث العلمي العالمي تماماً.

